احرص شيء على اطفاء نوره واخفاء امره فلو كان في مقدرتهم
معارضته لعدلوا اليها قطعا للحجة ولم ينقل عن احد منهم انه حدث
نفسه بشيء من ذلك ولا رامه بل عدلوا الى العناد تارة والى الاستهزاء
اخرى فتارة قالوا سحر وتارة قالوا شعر وتارة قالوا اساطير
الاولين كل ذلك من التحير والانقطاع ثم رضوا بتحكيم السيف في
اعناقهم وسبي ذراريهم وحرمهم واستباحة اموالهم وقد
كانوا آنف شيء واشده حمية فلو علموا ان الاتيان بمثله في قدرتهم
لبادروا اليه لانه كان اهون عليهم كيف وقد اخرج الحاكم عن ابن عباس
قال جاء الوليد بن المغيرة الى النبي صلى الله عليه وسلم فقرا عليه القران
فكانه رق له فبلغ ذلك ابا جهل فاتاه فقال يا عم ان قومك يرون ان يجمعوا لك
مالا ليعطوكه فانك اتيت محمدا لتعرض لما قبله قال قد علمت قريش
اني من اكثرها مالا قال فقل فيه قولا يبلغ قومك انك كاره له قال
وماذا اقول فوالله ما فيكم رجل اعلم بالشعر مني ولا برجزه ولا
بقصيده ولا باشعار الجن والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا
ووالله ان لقوله الذي يقول حلاوة وان عليه لطلاوة وانه لمثمر اعلاه
مغدق اسفله وانه ليعلو وما يعلى وانه ليحطم ما تحته قال لا يرضى
عنك قومك حتى تقول فيه قال فدعني حتى افكر فلما فكر قال هذا
سحر يؤثر يأثره عن غيره قال الجاحظ بعث الله محمدا صلى الله
عليه وسلم اكثر ما كانت العرب شاعرا وخطيبا واحكم ما كانت
لغة واشد ما كانت عدة فدعا اقصاها وادناها الى توحيد الله
وتصديق رسالته فدعاهم بالحجة فلما قطع العذر وازال الشبهة
وصار الذي يمنعهم من الاقرار الهوى والحمية دون الجهل والحيرة
حملهم على حظهم بالسيف فنصب لهم الحرب ونصبوا له وقتل من عليتهم
واعلامهم واعمامهم وبني اعمامهم وهو في ذلك يحتج عليهم بالقران
ويدعوهم صباحا ومساء الى ان يعارضوه ان كان كاذبا بسورة واحدة

او آيات يسيرة فكلما ازداد تحديا لهم بها وتقريعا بعجزهم عنها
تكشف من نقصهم ما كان مستورا وظهر منه ما كان خفيا فحين
لم يجدوا حيلة ولا حجة قالوا له انت تعرف من اخبار الامم ما لا نعرف
فلذلك يمكنك ما لا يمكننا قال فهاتوها مفتريات فلم يرم ذلك
خطيب ولا طمع فيه شاعر ولا طبع فيه لتكلفه ولو تكلفه لظهر ذلك
ولو ظهر لوجد من يستجيده ويحامي عليه ويكابر فيه ويزعم انه قد
عارض وقابل وناقض فدل ذلك العاقل على عجز القوم مع كثرة كلامهم
واستحالة لغتهم وسهولة ذلك عليهم وكثرة شعرائهم وكثرة من
هجاه منهم وعارض شعراء اصحابه وخطباء امته لان سورة واحدة وآيات
يسيرة كانت انقض لقوله وافسد لامره وابلغ في تكذيبه واسرع
في تفريق اتباعه من بذل النفوس والخروج من الاوطان وانفاق
الاموال وهذا من جليل التدبير الذي لا يخفى على من هو دون
قريش والعرب في الراي والعقل بطبقات ولهم القصيد العجيب
والرجز الفاخر والخطب الطوال البليغة والقصار الموجزة ولهم
الاسجاع والمزدوج واللفظ المنثور ثم يتحدى به اقصاهم بعد ان ظهر
عجز ادناهم فمحال اكرمك الله ان يجتمع هؤلاء كلهم على الغلط في الامر
الظاهر والخطا المكشوف البين مع التقريع بالنقص والتوقيف على العجز
وهم اشد الخلق انفة واكثرهم مفاخرة والكلام سيد عملهم وقد
احتاجوا اليه والحاجة تبعث على الحيلة في الامر الغامض فكيف بالظاهر
وكما انه محال ان يطبقوا ثلاثا وعشرين سنة على الغلط في الامر الجليل
المنفعة فكذلك محال ان يتركوه وهم يعرفونه ويجدون السبيل اليه
وهم يبذلون اكثر منه **فصل** لما ثبت كون القران معجزة نبينا صلى
الله عليه وسلم وجب الاهتمام بمعرفة وجه الاعجاز وقد خاض الناس
في ذلك كثيرا فبين محسن ومسيء فزعم قوم ان التحدي وقع بالكلام
القديم الذي هو صفة الذات وان العرب كلفت في ذلك ما لا يطاق وبه